

العلاقات الحجاجية ودورها في بلاغة الخطاب

سميرة خميس عبود الجنابي

مدرس مساعد

أ.م.د. أحمد خالد محمود

جامعة بغداد كلية العلوم الإسلامية قسم اللغة العربية

نسعى في بحثنا هذا إلى تسليط بقعة ضوء على أحد أهم القضايا التي تشغل الدرس اللغوي ألا وهي قضية العلاقات الحجاجية ودورها في بلاغة الخطاب حيث تلعب دورا كبيرا في زيادة جودة الخطاب وبلاغته فلا يمكن أن يتحقق الحجاج من منظور الروابط والعوامل والسلام فقط ؛ بل هو خطاب ذات علاقات شبكية معقدة تتداخل فيه بنية الواقع مع بيئة الخطاب ، فالاشتغال المهيمن في بنية الخطاب الحجاجي هي أطروحة الإقناع التي تحمل المتلقي إلى الإذعان والاستسلام ، فالخطاب الإقناعي يستغل كل قوى وعلاقات النص أو الخطاب الظاهرة والمخفية لصالح أهدافه الحجاجية ؛ إذ أن كل خطاب يدافع عن التناغم والانسجام. وهو ما يدعونا إلى النظر في العلاقات الحجاجية إي العلاقات بين مختلف الحجج والبراهين من ناحية ، وبين هذه الحجج والبراهين من جهة والنتائج التي يقصد إليها الخطاب وتقود إليها المتلقي ومن جهة أخرى ، فمسار اختيار العلاقات بمثابة بوصلة وبرهان يعكس استراتيجية معينة في الإقناع اختارها الباحث دون سواها وهو ما يطرح العديد من التساؤلات المهمة والمحورية. من خلال ما سبق سنحاول في نوع من المقاربات النقدية الوقوف على أبرز الإشكاليات التي يطرحها هذا الموضوع من مختلف جوانبه خاصة وأن غاية الخطاب يتكأ على تبليغ المتلقي ، وهناك مجموعة من العلاقات التي يمكن أن تكون مثبتة في الخطاب تحقق درجة عالية من الحجاجية، والتي تتبلور حول العلاقة السببية، والعلاقة الاقتضائية، والعلاقة التتابعية ، والعلاقة الاستنتاجية ، والعلاقة التقابلية وغيرها من العلاقات التي سنحاول الخوض في بعض منها في بحثنا هذا.

الكلمات المفتاحية: الخطاب الحجاجي، البلاغة العربية، العلاقات الحجاجية، التراث العربي.

أبرز العلاقات الحجاجية ودورها في بلاغة الخطاب: تعتبر العلاقات الحجاجية أحد أهم وأبرز الأدوات التي لها دور كبير في زيادة جودة الخطاب وبلغته نذكر منها:

العلاقات السببية

إن الاستلزام الخطابي للحجاج يحتاج إلى العلاقات المنطقية أو الرياضية أو الواقعية لكي يحقق التواصل والتفاعل مع المتلقي عاملا على إيصال الرسالة الحجاجية عن طريق الاستعانة بالإقناع ، ولما كان الخطاب الحجاجي شبكة معقدة ومتداخلة ومتشبكة؛ فإنه بذلك يكون علاقات غير عادية، علاقات مخصصة وموجهة بإتقان ودقة تحكمها معطيات كثيرة منها ما يتصل بالباحث ، ومنها ما يعود إلى المتلقي ، فضلا عن وضعيات الخطاب وغاياته ومختلف مقاصده ، فنمط الخطابات الحجاجية ليس مجرد تسلسل منطقي ؛ إنما تقنية برهانية تبحث عن منطق وسببية تغذي قوة الخطاب وطاقته الإقناعية. ⁽¹⁾ بعبارة أخرى أن كل خطاب هو في جوهره شبكة علاقات، ولكن الخطاب الحجاجي شبكة مخصصة من العلاقات وذلك يعود إلى كون المادة التي تقدم منها كل الخطابات ذات قالب واحد ألا وهي اللغة ، فاللغة في نظام البعد الحجاجية هي في الأصل نظام علامي يقوم على شبكة العلاقات التي تتجاوز امتداد اللغة ، فالجملة أو بنية جملة ذات هيمنة تواصلية تشتغل على منظور التأثير والإقناع . ⁽²⁾ لذا تبدو الحاجة إلى دراسة الخطاب باعتباره نظاما منطقيا له عناصر ظاهرة وخفية ؛ إذ إنه من الشائع و المعروف أن وضع الجمل يستجيب في الحقيقة إلى تلبية حاجة تنظيم الأفكار ووضوحها فلكي يكون النص واضحا معقولا ينبغي الفصل بين الجمل اللغوي وبين عناصر الخطاب الحجاجي. ⁽³⁾ فإستراتيجية الخطاب له اعتبارات منطقية يميل إلى عالم القضايا أو السياق ولتحديد العلاقات الرابطة بينها أو المؤسسة للخطاب ككل. والعناصر المكونة للحجاج تؤكد على ضرورة التميز بين ثلاث وظائف للخطاب ، فالوظيفة التخطيطية وهي التي ترسم حدود الأشياء التي يتعلق بها الخطاب ، والوظيفة التبريرية والتي تقوم على البراهين من زاوية خطابية ، وتمثل الوظيفة التنظيمية التي تعبر عن تنظيم عملي مزدوج يخضع لتنظيم القضايا وتنظيم الأشياء. ⁽⁴⁾ ولكن يبدو من الضروري التميز بين ما يمكن أن تقدمه الروابط أو الأدوات اللغوية والعلاقات الحجاجية ، فالروابط اللغوية يقتصر عملها على أن تؤسس علاقات حجاجية محدودة تربط مفاصل الكلام أو الخطاب ، أما العلاقات الحجاجية ، فهي تتوسع في مستوى الرابط الذي يخضع للمنطق والاستدلال وقانون السببية ، فالعناصر والجمل عندما تحل مكان عناصر وجمل أخرى لا تقيم علاقات دلالية أو بالمعنى إنما تعمل على تكوين كسب معاني ذات مضامين وقضايا أيضا ، فضلا عن الترتيب الذي يمكن أن يحدث للأفكار وتنسيق الحجج المقدمة لفائدة أطروحة على نحو يجعلها تقود إلى الغاية المنشودة من أجل الإقناع. ⁽⁵⁾ ولغرض الكشف عن هذه العلاقات في فواتح السور وخواتمها التي بني عليها الخطاب وأسس على ضوئها الأفكار والمعتقدات التي تتمظهر بها العلاقات . سنقف عندها مفصلا .

أولا: العلاقة السببية :

إن هذه العلاقة ذات مضامين عميقة وغير واضحة وإنما تحتاج إلى إعمال الفكر والذهن فإنها تنطلق من مركز يقوم على أساس ملاحظة حدث والذي يتسم بأنه حدث ضمنيا على أساس انه نتيجة أو اثر لمجموعة من الأشياء والقضايا الأخرى^(١)، فهذه العلاقة من ابرز العلاقات واقدرها على التأثير في المتلقي إذ يحرص المتكلم على ربط الأفكار والوصل بين أجزاء الكلام دون الاكتفاء بتلاحق عادي بينها وتتابع طبيعي يجعل الأحداث والأفعال والأفكار والأحكام متسلسلة متجاوبة تعتمد على مستوى أعمق من العلاقات^(٢) فيعمل على جعل بعض الأحداث أسبابا لأحداث أخرى ويسم فعلا ما بأنه نتيجة متوقعة لفاعل سابق ويجعل موقفا معينا سببا مباشرا لموقف لاحق ، فالطاقة الحجاجية للعلاقة السببية تستمد طاقتها من عالم المنطق وأدواته^(٣)، وعلى وفق هذا المسار للعلاقات السببية فإنه يمكن بروز العلاقة السببية التي تكون على مستويين سبب ونتيجة أو وسيلة بغاية فإذا أردنا التقليل من شأن الموضوع أو القضية نبرزه بوصفه نتيجة وبالمقابل فإن تضخيمه يتم تقديمه بوصفه غاية^(٤)، وقد وقف بيرلمان عند تلك العلاقة الحجاجية مشيرا إلى أن للوصل السببي ثلاثة ضروب من الحجاج ، حجاج يرمي إلى الربط بين حدثين متتابعين بواسطة رابط سببي ومثاله اجتهد فنجح ، وحجاج يرمي إلى أن يستخلص من حدث ما سبب أحدثه وأدى إليه ومثاله نجح لأنه اجتهد وحجاج يرمي إلى التكهّن بما سينجر عن حدث ما من نتائج ومثاله هو يجتهد فسينجح (١٠) (١٠) وقد تجلت تلك العلاقة في بعض الفواتح والخواتيم ، لربط أجزاء الكلام وإثارة الانتباه بمبررات مقنعة ، من ذلك قوله تعالى : (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) (الإسراء : ١) ، فقدم السبب في رحلة الإسراء بمحض من العبودية المطلقة عند تلك البيوت المقدسة من المسجد الحرام والمسجد الأقصى لتحقيق نتيجة مفادها الإيمان بتلك الآيات حيث تحقق المعجزة وطى الأرض في وقت قصير لبلوغ الوصول إلى المسجد الأقصى ، ولعل في ذلك مكامن الإقناع العالية المثيرة للمتلقي عند ربط السبب بحصول تلك النتيجة ، يقول ابن عاشور : (تَغْلِيلُ الْإِسْرَاءِ بِإِرَادَةِ إِرَاءَةِ الْآيَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ، تَغْلِيلٌ بِبَعْضِ الْحَكْمِ الَّتِي لِأَجْلِهَا مَنَحَ اللَّهُ نَبِيَّهُ مَنَحَةَ الْإِسْرَاءِ، فَإِنَّ لِلْإِسْرَاءِ حِكْمًا جَمَّةً ..، وَأَهْمُهَا وَأَجْمَعُهَا إِرَاءَتُهُ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، وَدَلَائِلُ قُدْرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ، أَيْ لِنُرِيَهُ مِنَ الْآيَاتِ فَيُخْبِرُهُمْ بِمَا سَأَلُوهُ عَنْ وَصْفِ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى. وَلَا مِ تَغْلِيلِ لَا تُعِيدُ حَضَرَ الْغَرَضِ مِنْ مُتَعَلِّقًا فِي مَذْخُولِهَا، وَإِنَّمَا أَقْصَرَ فِي التَّغْلِيلِ عَلَى إِرَاءَةِ الْآيَاتِ؛ لِأَنَّ تِلْكَ الْعِلَّةَ أَعْلَى بِنَكْرِيمِ الْمُسْرَى بِهِ، وَالْعِنَايَةِ بِشَأْنِهِ؛ لِأَنَّ إِرَاءَةَ الْآيَاتِ تَزِيدُ يَقِينَ الرَّائِي بِوُجُودِهَا الْحَاصِلِ مِنْ قَبْلِ الرُّؤْيَةِ)^(١١) وتقترب العلاقة السببية عبر ممارسة حوارية تتمثل فيها ثنائية السؤال والجواب ، للتعبير عن نمط إقناعي يدرکه المتلقي من خلال الجواب ، قال تعالى : (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ قُلِ فَأَتَوْا اللَّهَ وَأَصْلَحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (الأنفال : ١) فطبيعة السؤال كاشفة عن حدث استعمل فيه الفعل المضارع (يسألونك) للدلالة على استمرار حدث السؤال عن الغنائم وكيفية توزيعها في صفوف المسلمين آنذاك ، مع حضور الإجابة عن ذلك الفعل بان تلك الغنائم (حُكْمَهَا مُخْتَصَّ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَأْمُرُهُ اللَّهُ بِقِسْمَتِهَا عَلَى مَا تَقَضَى حُكْمَتُهُ، وَلَيْسَ الْأَمْرُ فِي قِسْمَتِهَا مَفْوضًا إِلَى رَأْيِ أَحَدٍ) (١٢) ولعل هذا المنحى الحجاجي القائم على السؤال يضع المتلقي أمام تعدد في الأجوبة ، لحين تحقق المبتغى في قبول المطروح من الإجابات ، وهنا تأتي القوة الإقناعية لدى المتلقي في اختيار الأبرز من الإجابات ، وبلا شك أن طبيعة الجواب المذكور ذات المنحى التشريعي خلقت تأثيرا في تقبل ما طرح من السؤال عن الأنفال وفي قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ) (الحج : ١)، ترد حجة أخرى تتقدم النتيجة فيها على السبب إذ قدمت التقوى على الزلزلة لتقديم قيمة توجيهية تكمن في كسب التقوى يوم لا ينفع شأن عند الحساب ، لابتعاد الناس عن أمر آخرتهم وانشغالهم بالدنيا فتحدث إحتلالات في السلوك والاعتقاد والإيمان ، يرى احد المفسرين : (وجملة إن زلزلة الساعة شيء عظيم في موضع العلة للأمر بالتقوى كما يفيد حرف التوكيد الواقع في مقام خطاب لا تردد للسامع فيه . والتعليل يقتضي أن لزلزلة الساعة أثرا في الأمر بالتقوى وهو أنه وقت لحصول الجزاء على التقوى وعلى العصيان)^(١٣) وبلا شك أن هذه الحجج لها فاعليتها في المتلقي ولها قدرتها في إثارة الخوف من هذا المصير المرتقب فلا ينفع معه إلا التقوى وإذا كانت العلاقة السببية تنطلق من ((ملاحظة حدث وان يُنظر إلى هذا الحدث ضمناً على أنه نتيجة أو أثر لمجموعة من الأشياء الأخرى))^(١٤)، فإننا نلمس ذلك في قوله تعالى : (الرَّ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) (إبراهيم : ١) فخرج الناس من الظلمات إلى النور هو غرض إنزال الكتاب إليه ، وإنزال الكتاب سبب لخروج الناس من الظلمات إلى النور ، وبذلك النتيجة يكون الخطاب الحجاجي برمته مدعاة إلى القبول لأنه يمارس نوعا من تحريك الذهن عند المتلقي في إدراك العلاقة بين السبب والنتيجة في النص أعلاه .وتأتي العلاقة السببية أحيانا في سياق تزويد المخاطب بالمعلومات ، يقول ديكرو : (والتواصل هو تزويد المخاطب بالمعلومات التي لم تسبق له معرفتها) (٣) (١٥)، مثال ذلك قوله تعالى : (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا) (الفرقان : ١) ، فتقديم الحجة في الخطاب وهي كون

النبي (ص) نذيراً للعالمين من خلال نزول الفرقان ، رسالة إلى المتلقي تحمل البعد العالمي الذي أنيط بتلك الرسالة في بعدها الإبلاغي العام ، وهذا يستلزم استشعار العمق والامتداد في تلك الرسالة الربانية التي لم يدركوها بمعناها الحقيقي الواسع . وفي سياق تفاوت قوة الحجج يأتي الرابط (حتى) كاشفاً عن العلاقة السببية بوصفه يمثل تعليلاً وترتيباً لقوة ما قبلها وما بعدها ، (فالحجة اللغوية لها قوة معينة، وتحتل مرتبة ما من المراتب الحجاجية، فهناك الحجج القوية، والحجج الأقوى، وهناك الحجج الضعيفة والحجج الأضعف) (اللغة والحجاج: ٠٨٨) ، مثال ذلك : قوله تعالى : (وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِيَّاكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَخُذَ اللَّهُ ۗ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ) (يونس : ١٠٩) ﴿١٠٩﴾ إذ أن وقوع ما قبل حتى يأتي في سياق يرمي إلى تحقيق ما بعدها ، فالطاقة الإقناعية متفاوتة لأن إتباع الوحي والصبر على منكري الدين جزاؤه النتيجة أو الحجة الأقوى المتمثلة بحكم الله وهي المكافأة لهذا الصبر والإتباع ، يقول ابن عاشور : (أَيُّ اتَّبِعْ فِي نَفْسِكَ وَأَصْحَابِكَ مَا يُوحَىٰ إِيَّاكَ. وَاصْبِرْ أَيُّ عَلَىٰ مُعَانَدَةِ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِقَرِينَةِ الْغَايَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿حَتَّىٰ يَخُذَ اللَّهُ﴾ فَإِنَّهَا غَايَةٌ لِهَذَا الصَّبْرِ الْخَاصِّ لَا لِطُلُقِ الصَّبْرِ) (١٦) وضمن سياق التأثير في سلوك المخاطبين تأتي العلاقة السببية في موضوع التذكير بنعم الله وابتلائهم بحقيقة تلك النعم ، قال تعالى : (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيُبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ) (الأنعام: ١٦٥) ﴿١٦٥﴾ فخلافة الأرض شاملة لكل إنسان مصلح في عمله وطاعته وعلمه ، بتفاوت درجات الممثلين لتلك الخلافة لأنهم درجات في الأخلاق والعلم والبصيرة والمال وغير ذلك ، لئيم على إثره الابتلاء وهو التمهين لما أنعم الله عليه بتلك النعم ، يقول الرازي : (ثم قال : (ورفع بعضكم فوق بعض درجات) في الشرف. والعقل، والمال، والجاه، والرزق، وإظهار هذا التفاوت ليس لأجل العجز والجهل والبخل، فإنه تعالى متعال عن هذه الصفات، وإنما هو لأجل الابتلاء والامتحان وهو المراد من قوله: (ليلبؤكم فيما آتاكم) (١٧) وتلك الملازمة السببية تحمل بعداً قيمياً ذا أثر أخلاقي يكمن في ضرورة استشعار النعم كافة أنها لغرض الاختبار وليست وسيلة للترف والانحراف والابتعاد عن تعاليم السماء . وهو ارتباط يعزز وجود العلاقة التفاعلية بين الباطن والمتقبل كما يرى بيرلمان (١٨) ولتثبيت الدعوى تتجلى القوة الحجاجية في أحد الخواتيم من خلال العلاقة السببية أيضاً ، قال تعالى : (هُذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ) (إبراهيم : ٥٢) ﴿٥٢﴾ فالرابط السببي المتمثل باللام حقق تراتبية حجاجية كان نتيجتها هذا التعليل ، فالتذكير بكتاب الله ووصفه بلاغا والإندار والتوجيه والتأكيد على وحدانيته في آيات كثيرة بأنه واحد لا شريك له ، هو لغاية يجب أن يدركها أصحاب العقول في الإتباع والامتثال وفي افتتاحية قوله تعالى (في سورة الأعلى :)) (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (1) نلاحظ أن افتتاحية الآية القرآنية تقوم على الربط بين السبب والنتيجة وهو ترابط ذات حضور في معظم افتتاحيات القرآني الكريم ، والتي ترتبط عادة بالتعليل والتفسير وكشف العلة من حصول الشيء لذلك ؛ فهي كثيرة التواجد في مجمل آيات القرآن الكريم ومن مظاهر توظيف هذه الحجة ، إذ نجد أن الموجهات الخارجية أو السياق الخارج كان له تأثير في توجيه مقصدية استهلال قوله تعالى ((سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (1))) إذ إنه معظم التفسيرات تذهب إلى أن مناسبة نزول هذه الآية جاءت عن طريق سؤال الرسول صلى الله عليه وسلم عن كيفية القول في السجود " عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ نَقُولُ فِي سُجُودِنَا؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} [الأعلى: 1] «فَأَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ نَقُولَ فِي سُجُودِنَا سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى وَتَبَّارًا» (١٩) ، فالمناسبة أضفت معنى العظمة والوقار والسمو على اسم الله سبحانه وتعالى ولعل اختيار لفظة (ربك) له أسبابها وتفسيراتها التي جاءت بـ " ثلاثة أوجه: أحدها: بأمر ربك. الثاني: بذكر ربك أن تفتتح به الصلاة. الثالث: أن تكون ذاكرةً لربك بقلبك في نيتك للصلاة. " (٢٠) ، وان العلاقة السببية التي يمكن أن تتدرج بها العلة والحجج في كونه الله سبحانه وتعالى هذه المنزلة العليا في قلوب المؤمنين لأنه قدم العلة والأسباب التي تشير إلى عظمتها منها {الذي خَلَقَ فَسَوَّى} يحتمل ثلاثة أوجه: أحدها: يعني أنشأ خلقهم ثم سَوَّاهم فأكملهم. الثاني: خلقهم خلقاً كاملاً وسَوَّى لكل جراحة مثلاً. الثالث: خلقهم بإنعامه وسَوَّى بينهم في أحكامه ، " (٢١) ويتعاقد مع سمو والتكامل والانسجام والهداية أو ما يمكن أن يحدث أو مصيره في قوله تعالى " (والذي قَدَّرَ فَهَدَى} فيه ثلاثة تأويلات: أحدها: قَدَّرَ الشقاوة والسعادة ، وهده للرشد والضلالة ، قاله مجاهد. الثاني: قدر أرزاقهم وأقواتهم ، وهدهم لمعاشهم إن كانوا إنساً ، ولمراعيتهم إن كانوا وحشاً. الثالث: قدرهم نكوراً وإناتاً ، وهدهم الذكر كيف يأتي الأنثى ، قاله السدي. ويحتمل رابعاً: قدر خلقهم في الأرحام ، وهدهم الخروج للتمام. ويحتمل خامساً: خلقهم للجزاء ، وهدهم للعمل. (والذي أَخْرَجَ المرعى} يعني النبات ، {فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى} أي: أسود أي: جعله هشيمًا رميمًا،". (٢٢) نتلمس على صعيد التقوية التي تعتمد الربط السببي أن العلة في القرآن الكريم التي توضح التأكيد على تمسك البشر بالإيمان بالله سبحانه وتعالى فالتتابع السببي يكون هنا عن طريق الاتكاء على أداة الوصول ، فالعلة هي في أمر التسبيح لله سبحانه وتعالى والتي جاءت بصفة الرب والذي يدل على الرعاية والعناية التي يتلقاها الإنسان لكون الله سبحانه وتعالى أو الرب قدم حجج وأسباب لكي يستحق صفة الربوبية. ((سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى

(١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى)) في كونه خلق الإنسان والكون وكان الخلق منسجماً وكاملاً ولقد جاء أداة الوصل (الذي) لكي تعمل على تماسك النص أو الخطاب القرآني ولاسيما عندما تكون الجملة التي بعدها صلة الموصول والتي تتحيز للرب وتدعم من أنها صلة لهذا الخالق الذي خلق الإنسان والكون بصورة منتظمة والتي ارتبطت بسلسلة منطقية من الأسباب المترابطة في كونه قدر وهدى والتي تشير إلى أنه لم يخلق عبثاً أو فوضى إنما حدد مستقبل ومصير هذا الكون والتي تدل على الأزلية والأبدية التي يتمتع بها هذا الرب لكي يحدد مصير الكون ويشهد نهايته ، فضلاً عن ما يمكن أن يبدأ بتقديم علل ترتبط بالذات الإنسانية القريبة إلى الإنسان بصفتها حجة عليه لكي تتوسع قائمة الحجج والأسباب ليكون هناك إشارة إلى الرزق وما يخرج من أنواع في الطبيعة ، والتي كلها من خلق الله سبحانه وتعالى فقد خلق الإنسان والطبيعة واعتن بالإنسان والطبيعة التي سخرها لصالح الإنسان ، ولكن هذا التواصل السببي والعلل التي ترتبط بجملة صلة الموصول فجاءت فاء السببية لكي ينقلب من معنى الخلق والحياة إلى الموت الذي يفسر قدرة الله على الخلق والموت أو تحويل الشيء إلى عدم فكان العلة أو الحجة التي يحاول الخطاب إيصالها إلى المتلقي تتحصر في رسالة دينية فإن الله سبحانه وتعالى القادر على الخلق فإنه في الوقت ذاته إنهاء الحياة فبيده الموت والحياة وهي قضايا بعيدة عن إرادة البشر والتي تكشف ضعفهم أمام عظمة الله سبحانه وتعالى . وقد استدعى الخطاب القرآني الحجة السببية لإبراز قضية الحياة والموت بوصفه سبباً أو علة لعبادة الله سبحانه وتعالى في سورة الملك بقوله : ((تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢) من دعوات الحجاج القوية ، إذ تحقق وظيفة إقناعية تأثيرية يضعها المرسل في الموضوع المناسب ، فالخطاب القرآني في هذه الافتتاحية يعتمد على درجات عالية وقوية وتعود قوتها إلى كونه سلطتها غير شخصية لأنه يخاطب الإيمان والعقيدة ، فعظمة الله سبحانه وتعالى تعود إلى عظمة قدرته وقوتها فافتتاح الآية بقوله "تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ" أي: تعظيم وتعالى، وكثير خيره، وعم إحسانه، من عظمته أن بيده ملك العالم العلوي والسفلي، فهو الذي خلقه، ويتصرف فيه بما شاء، من الأحكام القدرية، والأحكام الدينية، التابعة لحكمته، ومن عظمته، كمال قدرته التي يقدر بها على كل شيء، وبها أوجد ما أوجد من المخلوقات العظيمة، كالسماوات والأرض. (٣) ، فهذه الإحاطة والقدرة العالية التي ليس لها حدود وامتدادها وسعاً ارتبطت بالقدرة على الخلق وهو بمثابة اختبار للإنسان "وخلق الموت والحياة أي: قدر لعباده أن يحييهم ثم يميتهم؛ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا" أي: أخلصه وأصوبه، فإن الله خلق عباده، وأخرجهم لهذه الدار، وأخبرهم أنهم سينقلون منها، وأمرهم ونهاهم، وابتلاهم بالشهوات المعارضة لأمره، فمن انقاد لأمر الله وأحسن العمل، أحسن الله له الجزاء في الدارين، ومن مال مع شهوات النفس، ونبذ أمر الله، فله شر الجزاء. (٤) فممكن قوته الحجاجية عائد إلى طبيعة العلاقة السببية التي أسهمت هذه الآلية في رفع ذات المرسل إلى درجة أعلى ، وبالتالي منحها قوة سلطوية ، فالواقع الذي يمارس دوره في تدعيم الحجة ويعاضد من السبب في كون هناك امتحان للإنسان وذلك خلق الموت والحياة التي هي علة لمعلول والذي يرتبط بالاختبار ولحظة الحساب في يوم القيامة ، إذ إن هذه الدنيا خلقت لتكون موضع الامتحان والاختبار وسبب لعقاب وحساب الإنسان في الأخرى والواقع الملموس يتخذ من الشاهد التاريخي نوعاً من العلاقات السببية التي تدعم صدق القرآن الكريم ورسالة الرسول صلى الله عليه وسلم ففي خاتمة قوله تعالى في سورة غافر: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَعْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدَّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ (غافر: ٨٥) تجلت الحجج السببية في هذه الخاتمة القرآنية في دعم موقف الرسول عن طريق الحجج المحسوسة والاستدلال العقلي فقد " حث تعالى، المكذبين لرسولهم، على السير في الأرض، بأبدانهم، وقلوبهم: وسؤال العالمين. {فَيَنْظُرُوا} نظر فكر واستدلال، لا نظر غفلة وإهمال. (٢٥) " وأن هذا الإهمال قد جلب لهم العقاب ف"لَكَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} من الأمم السالفة، كعاد، وثمود وغيرهم، ممن كانوا أعظم منهم قوة وأكثر أموالاً وأشد أثاراً في الأرض من الأبنية الحصينة، والعراس الأنيفة، والزروع الكثيرة {فَمَا أَعْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} حين جاءهم أمر الله، فلم تغن عنهم قوتهم، ولا افتدوا بأموالهم، ولا تحصنوا بحصونهم. (٢٦) ، فجاءت الأسباب والحجج تدعم من موقف الرسول في محاججته مع المشركين ذاكراً " (٢٧) جرمهم الكبير فقال: {فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ} من الكتب الإلهية، والخوارق العظيمة، والعلم النافع المبين، للهدى من الضلال، والحق من الباطل {فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ} المناقض لدين الرسل. فكانت حججهم واهية وباطلة ولا تدعمها أسباب وعلل قوية حتى كان العقاب سبباً واقعياً في أن يعيدوا حساباتهم وله علاقة سببية في العودة إلى الإيمان " {فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا} أي: عذابنا، أقروا حيث لا ينفعهم الإقرار {قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدَّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ}

من الأصنام والأوثان، وتبرأنا من كل ما خالف الرسل، ﴿قَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ أي: في تلك الحال، وهذه ﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾ وعادته ﴿الَّتِي قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ﴾ أن المكذبين حين ينزل بهم بأس الله وعقابه إذا آمنوا، كان إيمانهم غير صحيح، ولا منجياً لهم من العذاب، وذلك لأنه إيمان ضرورة، قد اضطروا إليه، وإيمان مشاهدة، وإنما الإيمان النافع الذي ينجي صاحبه، هو الإيمان الاختياري، الذي يكون إيماناً بالغيب، وذلك قبل وجود قرائن العذاب. " (٢٨) ومع وجود قرائن لصدق بعث الرسول ورسالته وكان هذا الخطاب التهديد الذي أدى إلى خسارتهم "﴿وَحَسِرَ هُنَالِكَ﴾ أي: وقت الإهلاك، وإذاعة البأس ﴿الْكَافِرُونَ﴾ دينهم ودنياهم وأخراهم، ولا يكفي مجرد الخسارة، في تلك الدار، بل لا بد من خسران يشقي في العذاب الشديد، والخلود فيه، دائماً أبداً. " (٢٩) إن هذا الخطاب كله له دلالات وأسباب قائمة على خطاب التهديد والذي هو سبب لحدود وعدم إيمان المشركين فكان خطاب التهديد والترغيب عاملاً قائمة على أسباب واقعية في النظر إلى الأقوام السابقة وما جرى لها والذي يدل على أن الله سبحانه وتعالى يمكن أن يحل عقابه بالمشركين وأنه قادر على ذلك. تكتسي تقنيات الحجاج على أساس بناء العلاقات السببية التي بموجبها يتم اختيار الحجج المناسبة للسياق؛ لأن الخطاب القرآني وطريقة بنائه يخضع لإستراتيجية تتشكل عن طريق تفاعل مكوناته الداخلية من تعليل ومنطق سببي يقنع المتلقي ففي افتتاحية سورة المؤمنون قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلرَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ (المؤمنون : ١ - ١٠) تطرح هذه الآيات القرآنية العناصر والأسباب الضرورية التي تؤدي إلى فلاح المؤمنين والتي يمكن أن ترتب على وفق تسلسل منطقي وسببي والتي بدأت بالقضية الرئيسية والقوية في أن تعمل على أن تعلق من منزل المؤمنون ألا وهي الصلاة والتي يمكن أن ترتب على وفق الترتيب التنازلي كما يأتي: (المؤمنون : ١ - ٤)

١- قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ:
أي فازوا برضا الله ووظفروا بثوابه.
٢- الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ:
خاشِعُونَ خاضعون يتوجهون الى الله لا يشغلهم من مشاغل الدنيا شاغل.
٣- وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ:
أي منصرفون عما لا نفع فيه من قول أو فعل.
٤- وَالَّذِينَ هُمْ لِلرَّكَاةِ فَاعِلُونَ:
أي يؤتونها مستحقها.
٥- وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ:
أي يصونون سوءاتهم عما لا يحل.
٦- إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ:
أي إلا عن طريق الزواج فهذا لا تثريب عليه
٧- فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ:
فَمَنْ ابْتَغَىٰ فَمَنْ أَرَادَ.
وَرَاءَ ذَلِكَ أَي غَيْرِ الزَّوْجِ.
فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ الَّذِينَ اعْتَدُوا حَدُودَ اللَّهِ. (٣٠)

ولعل السبب الحقيقية في اختيار الله سبحانه وتعالى لكلمة الفلاح وهي التي تشير إلى فلاحه الأرض ، والتي تحتج إلى عمل وفعل شاق وصبر حتى يكون هناك فلاح للمحصول ، فضلا عن أن افتتاحية هذه الآية تتساق مع نهاية سورة الحج ، فلما في الحقيقة " قال الحق - تبارك وتعالى - في الآية قبل السابقة من سورة الحج ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾. { [الحج: ٧٧] ولعلّ تفيد الرجاء، أراد سبحانه أن يؤكد هنا على فلاح المؤمنين فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ {المؤمنون: ١} وأن الرجاء من الله واقع ومؤكد، لذلك جاء بأداة التحقيق ﴿قَدْ﴾ التي تفيد تحقق وقوع الفعل، وهكذا

تتسجم بداية سورة (المؤمنون) مع نهاية سورة (الحج).^(٣١) وثمة فارق أساسي ما بين الفلاح في سورة الحج والفلاح في سورة المؤمنون ولكل واحد منهم علاقة سببية تختلف عن الأخرى فاقوله تعالى هناك {تَقْلِحُونَ} [الحج: ٧٧] وهنا {أَفْلَحَ} [المؤمنون: ١] مادة (فَلَح) مأخوذة من فَلَاحَة الأرض، وَالْفَلْح هو الشق؛ لذلك قالوا: إن الحديد بالحديد يفلح، وَشَقُّ الأرض: إهارجتها وإثارتها بالحرث، وهذه العملية هي أساس الزرع. ومعنى أفلح: فاز بأقصى ما تتطلع إليه النفس من خير.^(٣٢) فالفلاح احتاج إلى أن تكون هناك صلاة متكاملة الأركان من حيث الهيئة والنية فالصلاة ليست فقط طقوس وحركات إنما ترتبط بالخشوع أيضا وهذا سببا آخر ليكون الفلاح ذات مضمون عالية وذات قيمة. وبذلك تبدو العلاقات السببية في الخطاب القرآني ذات علاقة مقنعة وتخضع لتتابع سببي بين الأحداث والأفعال أو بين الأفكار والمواقف والأحكام تتابع سببي يتمتع بقوة حجاجية، تمت على وفق الوحدة بين أجزاء الكلام الذي يتصف بالصرامة والمنطقية المنشودة والانسجام والتناغم المقنع.

المبحث الثاني العلاقة الاقتضائية

ارتبط الاقتضاء بظهور فلسفة اللغة العادية بمفهوم الإحالة وكان الفيلسوف فريغه أول من نبه إلى وجود علاقة بين هذين المفهومين حيث لاحظ أن صدق جملة ما متضمنة لاسم علم يقتضي أن تكون لهذا الاسم العلم إحالة^(٣٣)، أما الاقتضاء في اللغة في الاصطلاح العربي مأخوذ من قضى يقضي قضيا بمعنى حكم وفصل وأمر وبين^(٣٤)، ولقد تتبلور الاقتضاء حول ما يتوصل به إلى معرفة ما يتطلبه النص ويستلزمه الكلام لتنبه وتوضيحه ومعرفة المراد منه بدليل يدل عليه ويرشد إليه، وبعبارة أخرى الوصول إلى معرفة ما يستدعيه النص لاستيضاح المراد منه.^(٣٥) ومن نافلة القول أن الاقتضاء أكثر ما يكون ظهوره في التركيب وفي حالات التفاعل بين الأطراف المشاركة في المحادثة شأن المقتضي الوجودي والمقتضي التداولي.^(٣٦) ولقد لاحظ الفيلسوف فريغه أن اقتضاء الجملة المثبتة هو نفس اقتضاء الجملة المنفية مقابلتها بمعنى أن دلالة الاقتضاء هي الدلالة التي لا تنفي بنفي الجملة إنما بقاء النفي على الاقتضاء فمثلا:

مات كبلر فقيرا

لم يموت كبلر فقيرا

فالاقتضاء المثبتة والمنفية اتجهت إلى المعنى ذاته.^(٣٧) وعلى ضوء العلاقة الاقتضائية التي تقتضي وجود الشيء وجود شيء آخر يمكن أن نتلمس في فواتح السور وخواتمها نوعا من الاقتضاء الذي اتكأ عليه الفقهاء والأصوليون في تشكيل آراء فقهية وعقائدية. فالعلاقة الاقتضائية لكي تنطوي على حجج فالاعتماد الأساسي في هذه العلاقة يكون عن طريق مبدأ متميز في أن تجعل الحجة تقتضي تلك النتيجة اقتضاء والعكس صحيح بحيث تغدو العلاقة ضربا من التلازم بين الحجة والنتيجة، وإن الإستراتيجية القائمة في هذه العلاقة يتحكم بها الاجتهاد الذي يضيف نوع من الحتمية على العلاقة بين الحجة والنتيجة فيحكم الترابط بينهما بشكل يوحي بأن الأولى تقتضي الثانية والثانية تستدعي الأولى ضرورة حتى وإن كان هناك لا يوجد صلة حقيقية إنما صلة اقتضائية يتم تصورها عن طريق الأسلوب الشرطي والارتباط المعنوي^(٣٨)، ومقتضيات الاقتضاء في العلوم السلامية تشكل ركيزة أساسية وجوهرية في فهم القرآن الكريم ففي قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخْرُونَ لِلَّذِينَ يَبْئُتُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (١٠٩) قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوا بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١١٠) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكَبِّرَهُ تَكْبِيرًا﴾ (الإسراء: ١١١) ترسم الحجة الاقتضائية على وفق علاقات تكون نهاياتها عادة من طبيعة ما تتضمنه تلك العلاقة من تفوق قيمة على قيمة فإن الاقتضاء الذي وصف به فكل حجة عمل على أن تكون لها اقتضاء دلالي واستلزام يرتبط بموقف واقعي فقوله تعالى ف" ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ كما زعمت اليهود والنصارى وبنو مليح ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ كما زعم المشركون ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ﴾ أي لم يذل فيحتاج إلى ناصر أو لم يوال أحداً من أجل مذلة به ليدفعها بموالاته^(٣٩) فالمسار الاقتضائي يفسر قضايا ترتبط بالذات والصفات الإلهية التي تتجاوز الحجج التي قدمها خصوم الرسول صلى الله عليه وسلم، فكانت الصفة تقتضي لازمة عقائدية تحقق الجانب التقديسي لله سبحانه وتعالى فقوله تعالى "﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ فيكون مربوبا لا ربا، لأن رب الأرباب لا ينبغي أن يكون له ولد ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ فيكون عاجزا ذا حاجة إلى معونة غيره ضعيفا، ولا يكون إلها من يكون محتاجا إلى معين على ما حاول، ولم يكن منفردا بالملك والسلطان ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ﴾ يقول: ولم يكن له حليف حالفه من الذل الذي به، لأن من كان ذا حاجة إلى نصرته غيره، فذليل مهين، ولا يكون من كان ذليلا مهينا يحتاج إلى ناصر إلها يطاع ﴿وَكَبِّرَهُ تَكْبِيرًا﴾ يقول: وعظم ربك يا محمد بما أمرناك أن تعظمه به من قول وفعل، وأطعه فيما أمرك ونهاك.^(٤٠) وهناك خطاب حجاجي اقتضى صدقه وقوته عن طريق الاتكاء على إحالة خارجية ترتبط بسلطة المتكلم وهيئته ونفوذه عن طريق أقواله وأفعاله باعتبار السلطة الدينية حالة نفوذ ولحظة هيمنة ومجال

تعبير عن الذات وتأثير في الآخر التي تحضي بالقبول لدى السامع ، من هنا تبرز أهمية حجة السلطة التي تستعمل بها أعمال وأحكام وأطروحات ففي قوله تعالى في افتتاحية سورة الأنبياء ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلَكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٣) قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤) بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِالْبَيِّنَاتِ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوْلُونَ (٥)﴾ (الأنبياء : ١-٥) فالأصل الاقتضائي في هذه الآية ينحاز إلى عملية الإقناع التي تقوم على قوة الحجة ووضوح الدليل فاقتضاء اقتراب قيام الساعة ارتبطت بحالة اللعب ف(اقتراب للناس حسابهم) يقال قُرِبَ الشيء واقترب، قال الزجاج المعنى: اقتراب لهم وقت حسابهم أي القيامة، كما في قوله تعالى: (اقتربت الساعة) وتقديم (للناس) على الحساب لإدخال الروعة، ومعنى اقتراب الحساب دُنُوهُ منهم لأنه في كل ساعة أقرب إليهم من الساعة التي قبلها. ^(٤١)، فهذه الاقتضاء للتذكير بالساعة وقربها له علاقة بالغفلة واللعب وكان تحذير وتخويف لهم لكونهم غير متهيئين لها ف(وهم في غفلة) عن حسابهم وعمما يفعل بهم في الدنيا (معرضون) عن الآخرة غير متأهبين لا يجب عليهم من الإيمان بالله والقيام بفرائضه والانزجار عن مناهيه، ^(٤٢) فالحجة الاقتضائية في هذه الآية استندت إلى مستوى حجاجي بواسطة الإحالة إلى قضية تقترن بالعقاب والتذكير وهذه التنبيه بالغفلة واللعب اقتضى التذكير بالعقاب أو اقتراب الساعة. إن العلاقات الاقتضائية يمكن أن يتم الاستعانة بها في تدعيم أو حمل المخاطب على سلوك معين أو عمل معين سعيا يستند إلى التهديد ، وعلى أساسه يكون الإقناع الذي يتخذ في نهاية الأمر شكل الاستسلام والخضوع وهذه الحجج أيضا لها صلة بالتهديد بذكر أمثلة أو مشهد من مشاهد يوم القيامة ففي قوله تعالى في افتتاحية سورة الحج : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرُؤُنَهَا تَدْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ (الحج : ١) لجأت الحجة الاقتضائية في هذه الآية إلى وصف الحقائق وربطها بمواقف عظيمة لا يمكن أن يستوعبها العقل البشري من اجل تكوين بداية حجاجية قوية فالتحذير الذي أطلقه الله سبحانه للناس اقتضى وصف لمشهد من مشاهد يوم القيامة فالابتداء بـ"يا أيها الناس اتقوا ربكم) أي احذروا عقابه بفعل ما أمركم به من الواجبات وترك ما نهاكم عنه من المحرمات؛ ولفظ الناس يشمل جميع المكلفين من الوجوديين ^(٤٣)، فالتعليل الاقتضائي للأمر بالتقوى استوجب أن يكون هناك وصف لمشهد من مشاهد يوم القيامة والذي اقتضى حجج كثيرة للترهيب والإقناع فكان الترتيب كما يأتي :

إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ
الزلزلة هي إحدى أشرطة الساعة التي تكون في الدنيا قبل يوم القيامة
يَوْمَ تَرُؤُنَهَا
أي الساعة.
تَدْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ
تنسى كل مرضعة رضيعها، وهي أحنى ما تكون عليه.
وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا
وتسقط الحامل جنينها في غير أوانه.
وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى
يترنحون ترنح المخمورين.
وَمَا هُمْ بِسُكَارَى
وليس هذا عن سكر.
وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ
ولكن عن شدة العذاب وهوله. ^(٤٤)

يمكن عد العلاقات الاقتضائية بمثابة منطلقات جاهزة لأنها ارتبطت بمشاهد غيبية تمثل مخاوف مشتركة بين جميع الناس وهذه الوقائع او المشاهد والتي لا تكون عرضة للدحض والشك وهي تشكل نقطة انطلاق ممكنة للحجاج والذي اقتضى إجماعاً بأن هناك حساب وعقاب . ويمكن أن تتشكل العلاقات الاقتضائية عن طريق الصلة ما بين حدث واقعي اقتضى من الله سبحانه وتعالى العقاب الأكثر ففي افتتاحية سورة الشعراء في قوله تعالى :﴿طس (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنْ

السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿١٠١﴾ (الشعراء : ١٠١-١٠٢) يمتاز الحجاج في هذه الآية في انه على الرغم مما كان يعتري نفس الرسول صلى الله عليه وسلم ، من حزن شديد إلا انه كان معلقا بمشيئة الله سبحانه وتعالى الذي أدرك حزنه فتقضى هذا المشهد الحزين أو ما تعانیه نفس الرسول أن يكون هناك تهديد في أن يكون هناك حالة من القوة في أن يطيعوا الرسول صلى الله عليه وسلم بقوة الحالة النفسية التي ابتدأت بلعل التي تغيد الترجي فقله تعالى "لعلك باخع" بمعنى قاتل ولعل للإشفاق {تفكك} من الحزن يعني أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة وحزناً على ما فاتك من إسلام قومك {الآ يكونوا مؤمنين} لئلا يؤمنوا أو لإمتناع إيمانهم أو خيفة أن لا يؤمنوا^(٤٥)، وكان هذه الجملة جاءت بمثابة "تسليية من الله لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه، في عدم إيمان من لم يؤمن به من الكفار"^(٤٦)، فهذا المشهد لوصف الحزن الذي يدل على شدة وقساوة ما يعانیه الرسول صلى الله عليه وسلم من قومه فاقتضى الموقف والمشهد في ان يكون هناك نوع من بيان قدرة الله سبحانه وتعالى في العمل على فرض إرادته على الكفار ولكن مقتضى الدعوة الإسلامية كانت قائمة على الاختيار وليس الجبر فقله "تعالى: {إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ} أَي: لَوْ شِئْنَا لَنَزَّلْنَا آيَةً تَضْطَرُّهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ قَهْرًا، وَلَكِنَّا لَا نَفْعَلُ ذَلِكَ؛ لِأَنَّا لَا نُرِيدُ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا الْإِيمَانَ الْإِخْتِيَارِيَّ؛ وَقَالَ تَعَالَى: {لَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْفِرُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} [يونس: ٩٩] ، وَقَالَ: {لَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ. إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} [هود: ١١٨، ١١٩] ، فَفَعَدَّ قَدْرَهُ، وَمَصَّتْ (٤) حِكْمَتُهُ، وَقَامَتْ حُجَّتُهُ الْبَالِغَةُ عَلَى خَلْقِهِ بِإِزْسَالِ الرَّسُولِ"^(٤٧)، فالمعنى الواضح في أن القرآن الكريم يقدم مبدأ العدالة الذي يقتضي أن يسبقه حالة من الإقناع والتأثير على المتلقي وهو قادر على أن يكون عقابه مستمر عليهم حتى يؤمنوا لذلك نجد أن الفعل ظلت جاءت بمعنى الدوام إذ أن قوله تعالى "لإن نشأ نزل عليهم من السماء آية فظلت" بمعنى المصارع أي تظل أي تدوم {أعناقهم لها خاضعين} فيؤمنون ولما وصفت الأعناق بالخضوع الذي هو لأربابها جُمِعَتْ الصِّفَةُ مِنْهُ جَمْعَ الْعُقُلَاءِ"^(٤٨)، فان هذا البناء القائمة على علاقة الاقتضاء استعرض المعنى او جوهر الرسالة التي لا تؤمن بالقوى في فرض واقع وإنما يكشف عن إحدى المقتضيات ذات العلاقات بتقديم الجانب الإقناع الذي يقوم على منطق العقل في التأثير على المتلقي والذي بموجبه يقتضى عقابه لأنه كان مخيرا ولم يكن مجبرا فالمشهادين الذي تقدمه هذه الآية مشهد حالة الرسول صلى الله عليه وسلم التي تشير إلى حالة اليأس فهذه الحالة النفسية اقتضى أن يكون هناك نوع من شد عزميتها عن طريق التهديد من عند الله سبحانه وتعالى في أن تكون هناك آية تضطرهم للإيمان ، فكل فعل أو حالة أو ظروف اقتضى أن يقابل فعلا يصور مدى عظمة الموقف ومجمل العلاقات ما بين الحجج في الفواتح والخواتم القرآنية قد ارتبطت فيما بينها بعلاقات اقتضاء فالإقرار بوحدة من القضايا يقتضي الإقرار بالثانية والوقوف على إحداها يستتبع ضرورة الوقوف على أخرى فكانت اللوازم اللغوية تتعاقد مع المنطق البرهاني والاستدلالي التي مارست دورا في تشكيل نوع من الانسجام والتماسك في الخطاب القرآني .

الذاتية:

نصل في نهاية بحثنا هذا إلى مجموعة من النقاط المهمة والتي نوجزها كالتالي: _ لابد من العمل على إحياء تراثنا التليد والعمل على تجديده وفق مقتضيات العصر الحديث ومتطلباته فالتراث هو مصدر فخرا والذي من خلاله نحافظ على هويتنا وثبت وجودنا بين الأمم والخطاب يعتبر أحد أبرز الأدوات التي يمكن من خلالها التعبير عن هويتها العربية والإسلامية وهي فرصة للتركيز على مثل هذا النوع من الدراسات لتعزيز ثقة الشباب في العربي وافتخارهم بهويتهم العربية والإسلامية. _ ومجمل العلاقات ما بين الحجج في الفواتح والخواتم القرآنية قد ارتبطت فيما بينها بعلاقات اقتضاء فالإقرار بوحدة من القضايا يقتضي الإقرار بالثانية والوقوف على إحداها يستتبع ضرورة الوقوف على أخرى فكانت اللوازم اللغوية تتعاقد مع المنطق البرهاني والاستدلالي التي مارست دورا في تشكيل نوع من الانسجام والتماسك في الخطاب القرآني . _ إن غاية الخطاب يتكأ على تبليغ المتلقي ، وهناك مجموعة من العلاقات التي يمكن أن تكون مثبتة في الخطاب تحقق درجة عالية من الحجاجية، والتي تتبلور حول العلاقة السببية، والعلاقة الاقتضائية، والعلاقة التتابعية ، والعلاقة الاستنتاجية ، والعلاقة التقابلية وغيرها من العلاقات التي تشكل طبيعة الخطاب.

هوامش البحث

(١). ينظر: الحجاج محاولة في المنطق الخطابي : ٥٥ .

(٢). العلاقات الحجاجية في القرآن الكريم : ٥٥ .

- (٣). ينظر مفهوم الحجاج عند بيرلمان ، وتطوره في البلاغة المعاصرة ، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته : ١ / ٥٢١ .
- (٤). ينظر الحجاج في الشعر العربي ، بنيته وأساليبه : ٣١٧ .
- (٥). ينظر البعد التداولي والحجاجي في الخطاب القرآني : ٤٣ .
- (٦). ينظر مصنف في الحجاج الخطاب الجديدة : ٢ / ٣٦٤ .
- (٧). ينظر الحجاج في الشعر العربي ، بنيته وأساليبه : ٣٢٧ .
- (٨). ينظر الإقناع في القرآن الكريم ، دراسة في النمط والأسلوب : ٨٣ .
- (٩). ينظر مصنف في الحجاج : الخطابة الجديدة : ٢ / ٣٦٤
- (١٠) م.ن: ٣٣٢
- (١١) التحرير والتنوير : ٤ / ٦٨
- (١٢) مفاتيح الغيب: ٦ / ٤٨
- (١٣) التحرير والتنوير : ٧ / ٧٩
- (١٤) عدة الأدوات الحجاجية ، ضمن الحجاج مفهومة ومجالاته : ٢ / ٢٠٦
- (١٥) ينظر: البعد التداولي والحجاجي في الخطاب القرآني: ٢٠١
- (١٦) التحرير والتنوير: ٣ / ٧٤
- (١٧) مفاتيح الغيب : ٤ / ٣٩
- (١٨) الحجاج بين المنوال والمثال : ١٥ .
- (١٩). تفسير مجاهد ، : ١ / ٧٢٢ .
- (٢٠). تفسير الماوردي: ٦ / ٢٥٤
- (٢١). م.ن : ٦ / ٢٥٤
- (٢٢) م.ن : ٦ / ٢٥٤
- (٢٣). الفواتح الإلهية والمفاتيح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية : : ٢ / ٤٣١ .
- (٢٤) م.ن : ٢ / ٤٣١ .
- (٢٥). تفسير القرآن: ٥ / ٣٥ .
- (٢٦). الجامع لأحكام القرآن: ١٥ / ٣٣٦ .
- (٢٧). تفسير القرآن : ٥ / ٣٥ .
- (٢٨). الجامع لأحكام القرآن : ١٥ / ٣٣٦ .
- (٢٩) م.ن : ١٥ / ٣٣٦ .
- (٣٠). الموسوعة القرآنية : ١٠ / ٣٦٨ .
- (٣١). تفسير الشعراوي - الخواطر: ١٦ / ٩٩٥٩ .
- (٣٢) تفسير الشعراوي - الخواطر: ١٦ / ٩٩٦٠ .
- (٣٣). ينظر : اللسانيات الوظيفية : ٢٠ .
- (٣٤). ينظر الحجاج في الحديث النبوي ، دراسة تداولية : ١٢٧
- (٣٥). ينظر دلالة الاقتضاء : ٢١ .
- (٣٦). ينظر الحجاج في القرآن: ٩٢ .
- (٣٧). ينظر الحجاج في الحديث النبوي ، دراسة تداولية : ١٢٨
- (٣٨). الحجاج في الشعر العربي دراسة في بنيته وأساليبه : ٣٣٥ .
- (٣٩) تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل: ٢ / ٢٨٣ .

- (٤٠). جامع البيان في تأويل القرآن: ١٧ / ٥٩٠ .
(٤١). فتح البيان في مقاصد القرآن: ٨ / ٣٠١ .
(٤٢). فتح البيان في مقاصد القرآن: ٨ / ٣٠١ .
(٤٣). م . ن : ٩ / ٩ .
(٤٤). الموسوعة القرآنية: ١٠ / ٣٤١ .
(٤٥). تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) ،: ٢ / ٥٥٤ .
(٤٦). تفسير القرآن العظيم : ٦ / ١٣٥ .
(٤٧). م.ن: ٦ / ١٣٥ .
(٤٨). تفسير الجلالين: ٤٨٠ .